ابن الرومي
الشاعر المصور
للأستاذ عبد الرحمن شكرى

يولع الناس فى الحياة عادة ، لتسهيل فهم الأنفس والأمور وتبسيطه، بأن يجعلوا لكل نفس أو أمر صفة يرمزون بها أو معادلة أو قاعدة، وفى ذلك أضرار، منها أن العجلة قد ترمز للأمر أو النفس بصفة لا تتفق وأكثر الخصائص المراد تلخيصها بالرمز أو تختلف عنها كل الاختلاف، وإذا تعلق الناس بالرمز صعب إصلاح خطئهم وصعب حملهم على تغيير زيهم وصعب عليهم فعل الأمر الذى يعالجونه أو النفس التى يتفهمونها، أو قد يكون الرمز منطبقاً على جانب صغير منها فيغفل الناس عن الجانب الأكبر . على أن الرمز إذا وافق الجانب الأكبر فهو قد يغرى أيضاً بالغفلة عن الجانب الآخر الذى لا ينطبق عليه الرمز فيتسرب الخطأ فى هذه الحالة أيضاً، ولكن إذا تأنى المفكر فى وضع الرمز واختياره وقدّر أن يكون مخطئاً فى بعضه أو كله وحسب حساب ما لا ينطبق عليه الرمز حتى فى حالة الإصابة كان فعله مسهلاً للتفكير والفهم وتذوق الأمور. وعلى هذا الشرط نبيح لأنفسنا أن ننظر إلى كبار الشعراء على ضوء رمز نرمز به إلى كل منهم وصفة نصفه بها ، فنقول إننا نتذوق أبا تمام كأنه خطيب عبقرى يصير بأساليب البيان وأثرها فى النفس، جرىء فى ابتداع الأقوال، بصير بما يعالج من أمور البيان بالرغم من جرأته ؛ وسواء أكانت أقواله فى أمور حسية أو نفسية فإن كلماته تبلغ صميم القلب بما فيها من الخيال المشبوب وقوة الإيجاز مع الدلالة التامة والإلمام بالمعنى المراد ومع تجنب الإطالة الفاترة . وفنه من هذه الناحية يشبه أيضاً فن صانع القصص التمثيلية فى الاعتماد على قوة الأداء مع صدقه الفنى وإيجازه مع استيفائه المعنى. ونتدرك على هذا الوصف أن لأبى تمام ولن نشبهه به جوانب لا يتفقان فيها ولا يلتقيان عليها، لأن النفس الإنسانية تشبه البلّور فى الأضلاع والجوانب العديدة التى تنعكس عليها أشعة الشمس فى أشكال وجهات مختلفة متعددة . ونتذوق البحترى كأنه ممثل قدير يلوك حلو الكلام ويتأثر به وينتشى بحلاوة الصنعة حتى تخلق له الصنعة عواطف فنية كما فى حياة بعض كبار الممثلين؛ ونقدر مع ذلك أن لنفسه جوانب أخرى تنعكس عليها أشعة الفنون . ونتذوق الشريف الرضى كأنه موسيقى يحكم الوجدان ويؤثر فى النفس بأنغامه؛ ونقدر أيضاً ما للنفس البشرية من مرام مختلفة . ونتذوق المتنبى على أنه محارب مغامر مدجج بسلاح الحنكة والخبرة والاعتداد بالنفس ونعرف له جوانب أخرى . أما ابن الرومى فإننا قد أدركتنا فى أول الأمر حيرة فى اختيار صفة واحدة له ، إذ أنه قد يقف موقف الخطيب المؤثر كما فى قصيدته فى التحريض على قتال العلوى صاحب الزنج بعد أن خرّب البصرة وهى التى يقول فى مطلعها :

ذاد عن مقلتى لذيذ المنام شغلها عنه بالدموع السجام

وابن الرومى مثل أبى تمام مُغْرَى بابتداع التشبيهات والأخيلة والمعانى، ولكنا لم نشأ أن نختار له الرمز الذى اخترناه لأبى تمام لأنه قد يدركه الفتور، وأبو تمام لا يدركه الفتور؛ وقد يطيل حتى يمل سامعه خصوصاً فى المدح، وأبو تمام لا يطيل مثله. وقد تدركه اللجاجة الفكرية فى إيراد الحجة ودفع الحجة بالحجة على طريقة المجادل المناقش المناظر لا على طريقة الخطيب الذى يؤثر بالعبارات والأخيلة المشبوبة النارية المستقلة فى معناها بعضها عن بعض فى إيجازها وتركزها تركز الأحماض أو الروائح العطرية المنعشة أو المخدرة أو المميتة ، وابن الرومى يبسط معناه بسطاً كما تتسع دائرة موقع الحجر فى الماء أو كما يبسط الخباز الرقاقة فى قول ابن الرومى نفسه :

ما بين رؤيتها فى كفه كرة وبين رؤيتها قوراء كالقمر
إلا بمقدار ما تنداح دائرة فى لجة الماء يُرمى فيه بالحجر

وهذا هو الوصف الذى ينطبق على ابن الرومى نفسه فى صناعة المعانى فكأنه خباز المعانى . ولابن الرومى فى الأهاجى ما هو أشد من الأحماض فتكاً ، ولكن أثرها ناشئ أيضاً من تقصّى أجزاء المعنى وصوره المختلفة وتوليد المعنى من المعنى . ولم نشأ أن نصف ابن الرومى بما وصفنا به البحترى الذى ينتشى بما يصوغ من حلوى الصناعة وما يلوكه منها كما ينتشى الممثل بما يمثل من الأحاسيس . لم نشأ أن نصفه بهذا الوصف ولو أنه وصف ينطبق

على كل ذى فن إلى حد ما فهو ينطبق على الشعراء جميعاً ولكن ليس كانطباقه على البحترى. وابن الرومى لا يبلغ به التفانى فى فن الألفاظ وصناعتها والانتشاء بها ما يبلغه البحترى بل يستخدم ابن الرومى الألفاظ استخدام السيد الآمر لعبده محبوباً كان العبد أو غير محبوب؛ أما البحترى فكان لا يقرب الألفاظ إلا كما يقرب المحب حبيبته ولم نشأ أن نصف ابن الرومى بما وصفنا به الشريف الرضى الذى نتذوقه كموسيقى يحكم الوجدان والفطرة السليمة ؛ لم نشأ أن نصف ابن الرومى بهذا الوصف ولو أن له فى الغزل والعتاب والشكوى أشياء عميقة الأثر فى النفس كقوله فى الغزل :

أعانقها والنفس بعدُ مشوقة
إليها وهل بعد العناق تدانى
كأن فؤادى ليس يشفى غليله
سوى أن يرى الروحين يمتزجان

وقوله فى العتاب :

تخذتكم ترسا ودرعا لتدفعوا
نبال العِدَى عنى فكنتم نصالها
وقد كنت أرجو منكم خير ناصر
على حين خذلان اليمين شمالها
فإن أنتمُ لم تحفظوا لمودتى
ذماما فكونوا لاعليها ولا لها
قفوا موقف المعذور عنى بمعزل
وخلوا نبالى والعِدَى ونبالها

ولكنه بسبب لجاجته الفكرية أحيانا وتتبُّعِه أو موازنته بين أجزاء المعنى وتلمسه دقائق الصور قد تضيع منه النغمة الشعرية وإن كان شعره يكتسب ميزة أخرى. وقد أحس ابن الرومى مع ذلك فى نفسه بذلك الجانب منه الذى يشبه به الموسيقىّ أو الطائر الصادح فقال زاعما أنه لا يمدح ممدوحه :

إلا كما راقت القمرىَّ جَنَّتُهُ

فظل يُتْبِعُ تفريدا بتغريد

ولم نشأ أن نصفه بما وصفنا به المتنبى من أنه محارب مغامر يغالى فى الاعتداد بالنفس لأن ابن الرومى لم يطلب مُلْكاً ولا حُكماً ولا رياسة وإنما طلب السلامة من الناس وإنصاف أدبه وفضله وفنه وإعطاءه حق ذلك الأدب والفضل مما فى أيدى الوجهاء والرؤساء والأمراء من أموال الله والناس التى كثيرا ما كانت تنهب نهبا. وكان ابن الرومى مرهف الحواس منهوما بالجمال فى كل مظاهره ومطالبه، وهذا يكفى أن يكون شغله الشاغل فى الدنيا بعكس المتنبى. وكان ابن الرومى يخشى الأسفار فى طلب الرزق وله فى وصف خشيته منها أشعار، ويخشى ركوب البحر ويخشى لقاء الناس ويتشاءم بهم، فكانت صفاته النفسية تختلف

من بحر الفكر

كل شئ أمامى فى الريف يرتل نشيد السلام. فشجيرات الفول الخضراء ترقص مع النسيم، وترسل فى الفضاء من حولى أريج زهرها الأبيض كما ترسل القبلات المعطرة. والبقرة ذات الأهداب الشقراء تتمطى فى أشعة الشمس كأنها حسناء تستيقظ فى فراش دافئ. والكلب رابض قد أغمض عيناً وفتح أخرى تلقى على الكائنات نظرات الرضا والصفاء. والدواجن والهوام والأرض السمراء وجداول الماء، كلها بأصواتها الصغيرة وأزيزها اللطيف وصمتها الدائم وخريرها الهامس تتراءى للمتأمل كأنها تتبادل حواراً خفياً مفعماً بكلمات الود والحب والأخاء الأبدى، وكأنها جميعاً فى حركتها وسكونها جوقة موسيقية تخضع إلى يد غير منظورة كى توقع لحناً متناسقاً أزلياً لا يسمعه غير الأنبياء والشعراء.

صوت واحد نشز فى أذنى عن هذه المجموعة : هو صوت الإنسان. متى ظهر ظهرت معه الفوضى، ونشأ الخلاف حيث لا ينبغى أن يكون خلاف. تلك طبيعته. وقد تكون تلك أيضاً عبقريته.

جلس إلىّ رجلان لا يختلفان فى الزى ولا فى اللغة ولا فى اللهجة. لكن سرعان ما سمعت أحدهما يقول لصاحبه :

— أنت فلاح. أما أنا فعربى.

فمنيت بالأمر، وبادرت أسأل الرجل السؤال الذى طالما ألقيه فى مثل هذا الظرف :

— وما الفرق بين الفلاح والعربى ؟

فأجاب الرجل بذلك الجواب الذى سمعته كثيراً فى مثل هذا الموضع : مروءة العربى وشجاعته وشهامته وإكرامه الضيف وحمايته الجار. ثم ... ثم شرف النسب. لم يدهشنى ذلك ولكن الذى أدهشنى حقيقة، وقد لا يصدقنى البعض إذا ذكرته هو أن هذا الرجل غير المتعلم قد أشار إلى صاحبه وقال:

— أما جماعة الفلاحين فاهم إلا أولاد توت عنخ آمون !

عجباً ! إذن منشأ الخلاف بين العروبة والفرعونية ليس أدمغة المفكرين والمثقفين، إنما هو فى الريف وفى قلوب ساكنيه!

توفيق الحكيم

اختلافا كبيرا عن نفس المتنبي، ولا نحسب أن المتنبي كان يضرع في مخاطبة ممدوح كما فعل ابن الرومي في قوله :

أصبحتُ بين خصاصة وتجمُّل ... والمرء بينهما يموت هزيلا
فامدُدْ إليَّ يدا تَعَوَّد بطنها ... بذلَ النوالِ وظهرُها التقبيلا

وفي قوله :

تعرفتُ في صحبي وأهلي وخادمي ... هوانيَ عليهم مذجفاني قاسمُ

وبعد ذلك بأبيات يرجو الرئيس المعاتَبَ ألا ينسى أنه خادم.

أما شدته في مجانه فشدة الرجل المرهف الحس إذا جُوفِيَ أو غُبِنَ أو أُسيء إليه أو اضطهد. ونكرر أن النفس كالبلور ذي الأضلاع والأشعة المتعكسةُ عليه مختلفة النواحي. ولكن لعل أصدق وصف يوصف به ابن الرومي هو أن يوصف بالمصوِّر أو الرسام أو النقاش. ويخيل إلينا أنه لو كان عائشا في إيطاليا في عهد نهضة الإحياء واشتغل بالنقش والرسم ما كانت قدرته تقل عن قدرة مصور مثل تشيانو (تيتيان) في ولوعه بألوان الجمال وجمال الألوان. ولا نعني أنه كان مصورا في وصف مناظر الطبيعة والنبات[1] فحسب، وإنما كان مصورا في كل أبواب شعره من مدح أو ذم أو غزل أو وصف للغناء أو المآكل أو الأشربات. وقد ذكرنا قدرته الخطابية في قصيدة التحريض على قتال صاحب الزنج ولكن أعمق أجزاء القصيدة أثرا هو وصفه دخول الزنج المدينة ووصفه ما فعلوا بها وبأهلها. فولوع ابن الرومي بالألوان لم يكن مقصورا على ألوان المرئيات بل تعداها إلى ألوان الآراء، فتراه يُغرى بوصف لون من الرأي ثم بوصف اللون الذي هو نقيضه. والولوع بالألوان وشدة الإحساس بمعانيها وجمالها وأثرها من صفات المصور، وكذلك تَقَصِّي الأجزاء وربط أجزاء الصورة في القصيدة. ومن مظاهر ولوعه بوصف ألوان الرأي قصائده في مدح الحقد وذمه؛ وليس من المرفوض أن نقول إن مدحه الحقد كان بسبب إحساسه المرهف وحقده على الذين آلموا هذا الإحساس المرهف من مناوئيه. فمن مدحه الحقد قوله :

أدبي من أديم الأرض فاعلم ... أُسيء الريح حين يسيء بذرا
يُسمى الحقد عيبا وهو مدح ... كما يَدْعُونَ حُلْوَ الحق مُرًّا

وقوله :

وما الحقد إلا توأم الشكر في الفتى ... وبعض السجايا يَنْتَسِبْنَ إلى بعض

وإني أشك في أن الحقد توأم الشكر دائما فإنه إذا قُرِنَ بالحسد، ولكل نفس نصيب منه قل أو كثر، منع من الشكر. وقد راجع ابن الرومي نفسه ولامها على مدح الحقد في قصائد منها قصيدته التي يقول فيها :

يامادح الحقد محتالا له شبها ... لقد سلكتَ إليه مسلكا وعثا

وأبدع منها وأعظم قصيدته التي مطلعها :

يا ضارب المثل المزخرف مُطْرِياً ... للحقد لم تقدح بزند وارى

وعندي أن هذه القصيدة من أعظم وأجل قصائده، وكل منتخبات من شعره لا تشملها تعد ناقصة، وفيها يحث على مغالبة النفس لطباع الشر وعلى تنمية طباع الخير. وقد بلغت قوة التصوير عند ابن الرومي مبلغاً جعله يُصوِّر الطبيعة وكأنها من الأحياء. وربما كان ولوعه بذلك أكثر من ولوع شعراء العربية الذين كانوا يجردون من الجماد أشخاصاً فيخاطبون الليل أو السرى أو الرياح أو النجوم أو الربوع والأطلال أو الفراق، فيحدثونها وتحدثهم، وهذه الصفة من قبيل تلك الصفة في ابن الرومي وإن كان إحساسه بحياة الطبيعة أعم وأشبه بطريقة الشعراء الآريين[1]. وليس شبه ابن الرومي بالشعراء الآريين مقصوراً على إحساسه بحياة الطبيعة وإشاعة المعنى في أكثر من بيت وتقصي أجزاء المعنى، بل هو يشمل أيضاً تفضيله فكاهة الصور الخيالية ومعانيها على الفكاهة اللفظية الشكلية، وكانت فكاهة الصور الخيالية مفضلة في العصور المتقدمة في الآداب العربية فلم يبتدعها ابن الرومي وهي ليست ملكاً له ولا ابتكاراً ولكنه زادفيها زيادة كبيرة، ثم إن المتأخرين من الشعراء صاروا يفضلون فكاهة المغالطات اللفظية، وهذا النوع كان معروفاً شائعاً في الأدب الأوربي وإن كانت الصور الخيالية أفضل وأعلى مرتبة.

ولعل عظم نصيب ابن الرومي من فكاهة الصور الخيالية

(١) قد نبه الأستاذ العقاد إلى ولوع ابن الرومي بالألوان وضرب شواهد ذلك الولوع وأشار أيضاً إلى ولوعه بتصوير الطبيعة ذات حياة.

(١) كثير من علماء علم الوراثة في العصر الحديث ينكرون استطاعة الوراثة توريث أساليب الفكر ومذاهب الاحساس. وقد تقال بعضهم في ذلك، ولكن لم ينكر أحد توريث هذه الأمور عن طريق القدوة في الأسرة والبيئة من الجد إلى الأب إلى الابن

كانت من أسباب تبريزه فى الهجاء تبريزاً لا يضارعه فيه شاعر آخر. ولو حذفنا هجاءه الذى أفحش فيه مثل هجاء ابن الخبازة المعروف بهجاء بوران وغيره من الفحش القاذع الذى لا يصح نشره فى هذا العصر بقيت لنا فى هجائه صور فكاهية خيالية لا يستطاع تجنب اختيارها إذا أحصيت خلاصة الخلاصة من شعره، لأنها أعلى مرتبة من مدحه بالرغم من إجادته فيه. وقد كان الهجاء سبب موته مسموماً. والظاهر أن الأمراء والوجهاء كانوا يسيئون الظن ببعض مدحه غلاوة على خشية الذم، وهذا أمر يشاهد كثيراً فى الحياة؛ فإذا اشتهر رجل بالسخر ظن الناس كل مايقول من قبيل السخر أو الذم حتى ولو لم يقصد إلا المدح والتودد والصفاء. ومن شواهد سوء الظن هذا ما حدث عند ما مدح ابن الرومى أبا الصقر اسماعيل بن بلبل الشيبانى بقصيدته الرائعة التى مطلعها (أجنت لك الوزدَ أغصانٌ وكثبان) فأساء الممدوح الظن بقول الشاعر:

قالوا أبو الصقر من شيبان قلتُ لهم ... كلا ولكن لعمرى منه شيبان

وكم أبٍ قد علا بابن ذرا شرف ... كما علا برسول الله عدنان

ولم أقصرْ بشيبان التى بلغتْ ... بها المبالغ أعراقٌ وأغصان

وظن أنه يهجوه بضمة الأصل مع أن المدح ظاهر للأصل والفرع. ولا نظن أن النباء هو الذى سما بالممدوح إلى مرتبة الوزارة، وقد كان وزيراً فلم يبق إلا التعليل الذى ذكرناه، وهو أن الرجل إذا اشتهر بالسخر والذم حُملَ مدحه على محمل الذم والسخر، والشك فى نية القائل يُنطى على فهم السامع، وكثيراً ما تراه فى الحياة يُنطى على فهم ذوى الفهم حتى تراهم كالأغبياء.

والظاهر أن حادث أبى الصقر لم يكن الحادث الوحيد من نوعه وإن كان أظهر حادث. فإن لابن الرومى أشعاراً كثيرة يشكو فيها من خذلان الممدوحين مثل قوله: (ما لى لديك كأنى قد زرعتُ حصى). وقوله: (فلا تعتصر ماء الصنيعة بالمطل). وقوله: (طال المطال ولا خلود لحاجة). وقوله: (أياحسن طال المطال ولم يكن). ومثل هذا كثير فى شعره. وكان يغبط البحترى لإقبال الممدوحين على شعره، ومن أجل ذلك كان يتعرض ابن الرومى للبحترى، وله فيه أهاجٍ منها قوله:

الحظ أعمى ولولا ذاك لم نره ... للبحترىّ بلا عقل ولا حسب

(البقية فى العدد القادم) عبد الرحمن شكرى

من الشعر المنسى لحافظ!

« لحافظ إبراهيم كثير من القصائد والمقطوعات قد أهملها الناشرون، فلم يحفظها ديوانه فى طبعته الأهلية، ولا فى طبعته الحكومية، على أنها من الشعر الرائع الذى تشرق فيه روح حافظ وتتمثل فيه شخصيته؛ ولذلك رأينا من الوفاء لشاعر النيل، ومن الرعاية للأدب، ومن الإنصاف للتاريخ أن نذيع ما لدينا من ذلك — وهو قدر لا بأس به — بين قراء الرسالة، وربما لو اجتمع لنا مقدار كبير جعلناه تذييلاً لديوانه، ونرجو ممن عنده العلم بشىء من ذلك أن يدلنا عليه وله الشكر منا ومن أبناء الضاد فى سائر الأقطار ومن قراء الرسالة »

فؤادى ... !

يا خافقاً قل لى متى تسكنُ ... لله ما تُخفى وما تُعلِنُ

يا ليت شعرى عنك فى أضلعى ... ماذا تقاسى أيها المتحَنُ

وما الذى أبقاه من مهجتى ... ومن حياتى داؤك المزمِنُ

يا ثغره، من ذا الذى يحتسى ... برد ثناياك ولا يؤمنُ

يا قده، هذى قلوب الورى ... معروضة طوعى، لمن تطعنُ

يا لحظه، سُرّنا بما تشتهى ... كل محال فى الهوى ممكنُ

خيبة أمل ... !

وخيّب آمالى وقولُك دونَها ... وأنك عند الظالمين مَكين

يَسرُّك أنى نائم الجد عاثر ... ويُرضيك أنى للخطوب ألين

ليهنك مابى من أسىً وخصاصةٍ ... وتقليبى الكفين حيث أكون

م . ف . ع